من الاسكندرية إلى ديروط

للأستاذ أنور الجندى

جمعت فى خلال إجازتى بين سفرين ؛ كلاهما أبعدنى عن القاهرة . فسافرت إلى الإسكندرية ثم عدت إلى ديروط ؛ فكأنما ذهبت إلى أقصى الشمال حتى شارفت البحر الأبيض.. ثم قصدت إلى الصعيد الأوسط حيث قضيت أياما فى البلد التى ولد على ضفافها حافظ إبراهيم شاعر النيل

وفى كلتا الرحلتين متاع كبير ، ومتاعب كثيرة ...

أما فى الإسكندرية فقد التقيت بصفوة الناس ، وتغلغلت فى الطبقات الميسورة التى لان لها العيش وأتيح لها أن تأخذ بأوفى حظ من المتاع .. فهجرت القاهرة والأقاليم ، وأقلعت إلى الساحل تأخذ أكبر قسط من الهواء والماء . . ومن متاع النفس والجسد

رأيت المجتمع المصرى فى صورة الحرية المطلقة . وقد تجرد الرجال والنساء على وجه أحله البحر وحرمه الدين ؛ وأعطى كل من الجنسين لنفسه الحق فى أن يذهب حيث شاء . إن شاء أمضى يومه أمام الكابين . أو تحت المظلة . أو سابحا فى الماء ...

ورأيت صورة الهدى وهى تختلط فى صورة الضلال ... فلا تكاد تفصح إحداهما عن نفسها أو تتبدى واضحة جلية ، وأشفقت من المصير الذى ينتظر هذه الجماعات وقد منحت أنفسها ما تهوى وما تحب دون أن تجعل للعرف أو للتقاليد أو للدين حسابا معلوما أو حقا مفروضا ...

ومن العجب أن تقوم مسارح الفتنة والجمال على شاطئ البحرين مقامين كبيرين لرجلين من أعظم رجال التاريخ والتصوف هما: ابن جبير الأندلسى الرحالة الذى طاف الشرق وقدم من المغرب ومات فى الإسكندرية

وبشر الحافى الصوفى العراقى الذى أثر عنه الزهد والعلم والورع

ولكل منهما مسجده الضخم القائم فى قلب المنطقة الآهلة بالمصيفين ورواد الكابينات ؛ والذاهبين إلى البلاج والعائدين منه

وبينما تذهب آثار الرجلين فى بطون التاريخ فلا يذكرهما ذاكر إلا القليل من الباحثين والعلماء ، يبسط الله فى اسميهما ؛ فيكتب فى تذاكر الأتوبيس والسيارات ، وينادى به الحالون والسائقون ، ويجرى على ألسنة المسافرين والعائدين ...

* * *

ثم سافرت إلى ديروط ، تلك المدينة التى كانت حديث الصحف فى الشهور الماضية ، فلقيت قوما يختلفون كل الاختلاف عمن لقيت فى الإسكندرية

لقيت قوما يكدحون فى سبيل العيش والرزق ، يعملون سحابة يومهم .. فإذا أمسى المساء التقوا على « القناطر » التى هى أبدع عمل هندسى فى الصعيد بعد خزان أسوان وقناطر أسيوط

رأيت أهل الصعيد فى نقائهم وطهرهم وبساطتهم ، يمضون فى الحياة لا يتكلفون ، قد أخذوا من الحضارة بطرف ، ولكنهم ما زالوا يضنون عليها بالعرض والشرف والخلق والتقاليد

رأيت «المئذنة» العالية وسمعت صوت النداء باسم الله ينبعث من فوقها فيهز النفس من الأعماق ، ويرسل إلى الكون كله فيضا من الحب والسلام ... هذه مئذنة الجامع الكبير ، من أعلى مآذن القطر كله ؛ قد بنيت بالقرميد الأبيض والأحمر على هيئة غاية فى الرواء والإبداع ، وكان مقامى فى بيت قريب منها على الضفة الثانية للترعة الساحلية ، فما كنت ألقى نظرى من النافذة مرة ، جالسا أو قائما ، إلا كانت تتراءى لى فتهزنى ، وتملأ نفسى بذلك الإحساس الروحى الغامر . . فإذا واجه غرفتنا المؤذن فى صلاة الفجر ، انبعث صوته رطبا نديا .. كأنما يسكب على هذا الصمت والسكون الضياء والنور ، فما ألبث أن أهتز فى مضجعى أردد اسم الله ...

ألا ما أبعد الفارق بين ما تثيره ديروط وماتثيره الإسكندرية فى النفس ؛ إن هذه تعطينى معنى الروح كاملا حيا ، أما تلك فلا تترك فى نفسى إلا متاعب الصراع بين الهوى والحق ، وبين القلب والغريزة ...

وفى ديروط كنت أطلق الطرف بعيدا فى تلك المروج الخضراء أتزود وأقتات من جمال الريف ، وهناك فى أطراف المدينة حيث تلتقى الحضارة بالريف ، والصناعة بالزراعة ... كنت أجلس

الساعات الطوال أنظر وأسبح بعيدا حتى يردنى عن أفكارى قطار « الديزل » السريع وهو ينهب الأرض فى طريقه إلى القاهرة …

وفى المساء كنت أسير مع صديق « محمد زكى » نتحدث عن الرافعى … إن صديقى لا يمل الحديث عنه ، إنه يحبه غاية الحب ، ويرى يومه عبثا من العبث لو انه انقضى دون أن يقرأ له فصلا أو صفحة أو كلمة أو « كليمة »

إن صديقى من أدباء الريف المنمورين ، الذين قضت عليهم ظروف الحياة أن يعيشوا هناك ، حيث لا تصفو الحياة كثيرا للأديب الذى يريد أن يصنع المجد …

وفى ساعات الغروب على الإبراهيمية أو على اليوسفى ، تلبس ديروط حلة قشيبة من الجمال..الحزين . حيث نعود بالذاكرة إلى ما قبل عشرين عاما من العمر ، عندما كنا نخطو إلى هذه المدرسة القائمة تجاه مبنى الرى … نتلق أول دروس العلم ، ودروس الحياة

* * *

أما ذلك المساء ، فقد كان حزينا حقا ، بالغا غايته فى الظلمة والحزن . فقد انطلقت إلى حيث كان للقلب قصة منذ سن السابعة عشرة ، ولما مرت العربة بنا على ذلك المكان الذى يعيش فيه ذلك الروح الحزين . هتف القلب : ترفق أيها السائق ؛ فإن لنا هنا ذكرى عزيزة

كان الوجه الأول الذى لقينى بين ظلمات الأحداث ، ومتاعب الشباب الباكر ، فأحال دنياى جنة وارفة الظلال ، وأمد روحى بذلك الرحيق القدسى الذى يحسه الشباب الحدث ، الذى يتطلع إلى المجد ، حين يلتقى مصادفة بإنسان وهبه الله فيض الجمال وفرط الحسن.. وأمده بذلك الروح الشاعر الصادق ، بحيث لا يخرجه عن تقاليده وخلقه ، ولا يصرفه عن طهره ونقائه …

ولكن الظروف تقصر ، والأقدار تأبى ، فإذا به يمضى فى طريقه وأمضى فى طريقى . وأظل على الرغم من مرور بضعة عشر عاما أحس كأنما كان الأمر بالأمس ، ما زال قائما فى النفس لا يبرح ، وما تزال صورته فى الضمير لا تزول . إذا هتف الهاتف باسمه ظننت أنه هو ، وإذا خطر من يشبهه ذكرته ، وعدت بالخيال مرة أخرى إلى أيامه الحلوة ، عليها سلام الذكريات

وبالرغم من الزمن البعيد ، فهو ماثل فى القلب ، يذكرنى بالماضى البعيد ، وكأنى به أنتظره وأترقبه ؛ وأرجو على مر الزمن أن يتاح لى مرة أخرى أن ألقاه …

كان ذلك المساء قاسيا على نفسى ، فقد كنا فى السيارة نتذاكر قصيدة الأستاذ محمود محمد شاكر « اذكرى قلبى فقد ينضرمن ذكراك عودى» .. وبينا كان صاحبنا يرددها ، كنا نمر فى نفس المكان الذى يتنسم فيه شاعرنا أنفاس الحياة

والحق أن «ديروط» أعادت إلى نفسى الذكريات التى طوتها أعباء الحياة فى القاهرة ؛ فما أظن أننى قضيت فى ديروط عشرة أيام منذ سبعة عشر عاما غير هذه المرة …

لقيت وجوها كثيرة لم أرها منذ طويل ، وجوه كلها إلى حبيب ، ولى معها ذكريات ؛ ولكن غاب عنى وجه لطالما أحببت أن ألقاه ، ولكنه طريح فى المستشفى ، عجل الله له الشفاء ، وكتب له الصحة والعافية …

أنور الجندى

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول

من كتاب

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد